مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، المجلد ١٨، العدد (١)، لسنة ٢٠٢٢

College of Basic Education Researchers Journal. ISSN: 7452-1992 *Vol. (18), No.(1), (2022)*

غلاء سنة ١٨٧٨ وانعكاساته الاقتصادية في الموصل

لمى عبد العزيز مصطفى

جامعة الموصل كلية الآداب قسم التاريخ

(قدم للنشر في ٢٠٢١/٧/٢٥ ، قبل للنشر في ٢٠٢١/٩/٧)

ملخص البحث:

كانت الموصل إبان مدة السيطرة العثمانية (١٥١٦–١٩١٨) مرتعاً خصباً لعدد من موجات الغلاء والقحط والمجاعات التي تعرضت لها وعبر حقب زمنية مختلفة قضت على أعداد كبيرة من سكانها. ورغم امتلاك الموصل لأخصب الأراضي الزراعية التي شكلت مياه نهر دجلة المورد الرئيسي لتأمين حاجات هذه الأراضي من المياه. وما قد ينجم عن انحباس وفيضان وانجماد هذا النهر من تدمير لمساحات زراعية واسعة ومن ثم ندرة المنتجات الزراعية التي اشتهرت بها الموصل، وما رافق ذلك من اجتياح المدينة لموجات الغلاء ومنها غلاء سنة ١٨٧٨ والذي عرف لدى أهالي الموصل بسنة الليرة أو البرسمية (البرسيمة) ومعناها بالكردي (الجوعان) والذي عد واحداً من أقسى موجات الغلاء التي تعرضت لها المدينة عبر تاريخها الطويل عندما ارتفعت أسعار المواد الغذائية إلى الحد الذي وصلت فيه أسعار وزنة الحنطة إلى (ليرة ذهبية) مما أدى في النهاية إلى تعرض المدينة وعدد من المدن العراقية إلى موجة غلاء قاسية ذهب ضحيتها أعداد كبيرة من السكان.

The high cost of 1878 and its economic implications for Mosul

Luma Abdulaziz Mustafa

University of Mosul / College of Art / Dept. of Historical

Abstract:

During the domination of Ottomans (1516-1918), Mosul was overfull with waves of high prices, aridity and famine throughout various periods of time, which resulted in death of great number of its populations. Although Mosul is characterized with the most fertile agricultural soil supported by the Tigris which is the main source of water to the lands, but the flooding, restriction of water and the freezing of this river water could destroy vast agricultural lands, which in turn leads to the scarcity of agricultural products Mosul was famous with in addition to the waves of high prices in 1878 were known by Mosul people as the "year of Lire" or "Barsameyya year" (Barseemah), which means in

Kurdish (hungry) This year was considered as one of the most cruel wave of famines and high prices the city witnessed that the price of wheat was one gold lire and this eventually brought a ruthless wave of high prices (famine) that led to the death of great number of people in Mosul and other governorates.

مقدمة:

وقع اختيار الباحثة على واحدة من الكوارث التي اجتاحت مدينة الموصل وذلك سنة ١٨٧٨ والمعروفة لدى أهالي الموصل بسنة الليرة أو البرسمية والتي عد حدوثها نتيجة طبيعية لتأثير عدد من الأسباب نذكر منها رداءة الموسم الزراعي وانجماد مياه نهر دجلة مما ادى إلى قلة الحاصل الزراعي وارتفاع اسعار المواد الغذائية والذي ادى في النهاية إلى اجتياح المدينة لموجة غلاء ذهب ضحيتها اعداد كبيرة من السكان.

يقع البحث في مقدمة واربع محاور استعرض المحور الاول ابرز موجات الغلاء التي اجتاحت المدينة خلال المدة (١٥٤٦-١٨٧٨). أما المحور الثاني فسلط الضوء على مسببات غلاء سنة ١٨٧٨ من أسباب طبيعية وبشرية. فيما تناول المحور الثالث انعكاسات هذه الأزمة على الواقع الاقتصادي لمدينة الموصل. وركز المحور الرابع على موقف السلطات المحلية وعدد من الجهات والشخصيات لمواجهة هذه الأزمة.

أولاً: موجات الغلاء التي اجتاحت الموصل حتى سنة ١٨٧٨:

تضم ولاية الموصل منطقة زراعية خصبة تمتد بين نهري دجلة والفرات، وبالاعتماد على مياه الامطار فقط حيث ازدهرت زراعة الحنطة والشعير والرز والسمسم والقطن والفواكه والخضراوات. وخلال القرن التاسع عشر وفر هذا الانتاج الزراعي الغذاء والمواد الاولية للسكان المحليين، فيما جرى تصدير الفائض إلى بغداد والبصرة وديار بكر. جذب هذا النشاط الزراعي انظار عدد من الرحالة الذين زاروا المدينة نذكر منهم الرحالة الايطالي دومينيكو لانزا Domenico Lanza الذي زارها لمرتين الاولى سنة ١٧٥٤ والثانية سنة ١٧٦٤ حيث اشاد بخصوبة اراضيها ووفرة انتاجها عندما قال "ان اراضي الموصل الممتدة على الضفة الغربية كانت تحرث كلها" وكذلك اراضي "القرى العديدة القائمة على الضفة الشرقية" والتي وصفها بأنها "خصبة للغاية خصباً يفوق التصور... لذلك فغلتها تكفي لا بل تفيض عن حاجة الولاية، وربما تكفي لسد حاجة الولايات المجاورة"[١]. أما كروفز Croves الذي زار الموصل سنة ١٨٣١ فأشاد بالدور الذي اضطلعت به الموصل وكردستان في نجدة ولاية بغداد وقت الازمات عندما قال أنه

"بالإمكان ورود الحبوب بسهولة من الموصل وكردستان"[٢]. أما الرحالة البريطاني بادجر Badger الذي زار الموصل سنة ١٨٤٢ فذهب إلى أبعد من ذلك عندما وصف خبز الموصل بأنه "أجود خبز في تركيا"[٣].

رغم تنوع المنتجات الزراعية لهذه المدينة، إلا أنها كانت تتعرض إلى نكبات اقتصادية فادحة سرعان ما تترك آثارها على الحياة الاقتصادية لهذه المدينة لأسباب عدة:

١. اعتماد الزراعة على الامطار فمن الطبيعي أن يتأثر انتاج هذه المدينة بالتغييرات المناخية أو البيئية كالفيضانات أو تأخر هطول الأمطار مما يؤثر على المنتوج الزراعي ويؤدي إلى اتلافه وبخاصة الحبوب[٤].
٢. انخفاض درجات الحرارة وتساقط الثلوج مما يهدد بالقضاء على أغلب المحاصيل الزراعية.
٣. هجمات الجراد النجدي المندفعة إلى المنطقة من مواطنها الصحراوية في الجزيرة العربية والتي تهدد الانتاج الزراعي[٥].
٤. انتشار الامراض والأوبئة في الموصل وما يرافق ذلك من اغلاق للمدينة وتوقف المعاملات التجارية وارتفاع اسعار المواد في اسواق المواصل. فعلى اثر انتشار وباء الطاعون في الموصل للمدة ١٧٩١-١٨٠١ توقفت حركة المبادلات التجارية بين الموصل والمنطقة الكردية وبغداد مما أدى إلى ارتفاع اسعار العديد من المواد في اسواق الموصل[٦].
٥. هجمات العشائر العربية والكردية على القوافل التجارية مما يؤدي إلى توقف توافد هذه القوافل إلى الموصل أحياناً، وارتفاع أسعار كثير من المواد الواردة إلى هذه المدينة فخلال سنتي ١٨٠٥-١٨٠٦ ارتفعت أسعار عدد من المواد ومنها الملح وسمن الغنم في أسواق الموصل بسبب تجاوزات عشائر شمر الجربا[٧] على الطرق التجارية[٨].

كانت لهذه الاسباب انعكاساتها السلبية على شحة المواد في الاسواق وارتفاع اسعارها مما عرض المدينة إلى موجات غلاء شديدة ويقدم الجدول التالي صورة تفصيلية عن موجات الغلاء التي اجتاحت الموصل خلال المدة بين ١٥٤٦-١٨٧٨.

جدول رقم (١)

موجات الغلاء التي اجتاحت الموصل للمدة ١٥٤٦-١٨٧٨

السنة	سبب الغلاء

السنة	سبب الغلاء
١٥٤٦	هجوم الجراد الأصفر وانحباس المطر.
١٥٩١	بيع رطل[٩] الخبز بدرهمين[١٠] بسبب الغلاء[١١].
١٦٠١	اجتاح وباء الطاعون الموصل[١٢] والذي تزامن مع تعرض المدينة إلى موجة غلاء اضطر فيها الناس إلى أكل الميتة وارتفع سعر رطل الحنطة إلى ثلاثة دراهم[١٣].
١٦١٦	"جاء الجراد واكل زرعها وحدث الغلاء والجوع"[١٤].
١٦٢٧	"حدث غلاء فاحش في الموصل"[١٥].
١٦٧٢	تعرضت المدينة إلى الغلاء على اثر هجوم الجراد النجدي الذي قضى على مزروعاتها[١٦]. حيث بيع رطل الخبز بثلاثة دراهم ونصف[١٧].
١٦٧٦	"قحط بها المطر...وكان الزرع قد نبت وجاء الجراد النجدي وأكل ما نبت وهربت الرعايا، وخربت القرايا، حتى مات خلق كثير..."[١٨].
١٦٨٧-١٦٨٩	"كان ابتداء الغلاء الشديد وسببه مجيء الجراد وأكل الزرع[١٩]...بلغ سعر رطل الحنطة درهماً وكل رطلي شعير درهماً ورطل التمر درهماً ومع اشتداد الغلاء اصبح عجين الحنطة كل رطل بدرهمين وسعر رطل الشعير درهماً..."[٢٠].
١٦٩٠	وقع برد كثير[٢١].
١٧١٢	كان الغلاء المتوسط "غلاء ابراهيم باشا" نسبة إلى والي الموصل ابراهيم باشا السلحدار (١٧١١-١٧١٣)[٢٢]...حيث "هاجم الجراد فأضر البلاد كثيراً، فولد غلاء...فبلغ سعر وزنة[٢٣] الحنطة سبعة دراهم"[٢٤].
١٧٢٥	تعرضت الموصل إلى غلاء شديد بعد اكل الجراد للحاصل[٢٥].
١٧٤١-١٧٤٢	هاجمت منطقة الجزيرة موجة من البرد الشديد امتدت إلى الموصل جمد على اثرها نهر دجلة لمدة عشرين يومياً. وفي محاولة للبحث عن القوت تدفقت إليها أعداد كبيرة من اهالي القرى. كما باع الفقراء بناتهم وأطفالهم، ثم جاء هجوم الجراد. ومما زاد في تدهور الموقف، فشل المحاولات لتأمين حاجات السكان الغذائية عن طريق

السنة	سبب الغلاء
	الاستيراد[٢٦].
١٧٥٧	"اشتد الغلاء، أتى الجراد وأكل الزرع، بيعت الغلة خمسة أرطال بثمانية دراهم، والشعير رطل بدرهم..."[٢٧] كما أتلف البرد المزروعات والمواشي وزاد على ذلك انقطاع وارد الغلة لعدم وجودها في البلاد المجاورة، وقلة وسائط النقل لجلبها من البلاد البعيدة[٢٨]. "صاحب ذلك تدفق أعداد كبيرة من الناس من القرى المجاورة فامتلأت المدينة بالفقراء من أهل البلدة ومن أهالي القرى ومن الأماكن النائية"[٢٩]، استمر الغلاء ثلاثة سنوات[٣٠].
١٨٧٧	بيعت الوزنة والنصف من الحنطة بثمانية دراهم[٣١].
١٨٧٨	انقطع المطر.
١٧٨٢	انقطع المطر.
١٧٨٤	انقطع المطر[٣٢].
١٧٨٥	"قحط المطر بالموصل...واشتد الكرب...وبيعت الحنطة كل رطل بدرهم، والشعير رطل ونصف بدرهم ووقع الموت في الدواب والمواشي لعدم المرعى وبيعت البقرة والثور بقيمة الجلد....وعم الغلاء جميع قرى الموصل....وهربت الرعايا إلى الأماكن البعيدة بطلب المعاش"[٣٣].
١٧٨٦	"اشتد الغلاء في الموصل، فكان الغلاة التي تباع بقرش بغدادي[٣٤] تباع بريال[٣٥] وبطل التعامل"[٣٦].
١٧٨٨	اشتد الضيق وحمل سكان الأطراف من أعراب وأكراد على الهجرة من الموصل وكردستان وألقوا ثقلهم عليها..."[٣٧].
١٧٩١	"انقطع المطر ويبس بعض الزروع وصار الحصاد في بعض القرى وحدث الغلاء بالموصل حتى بيعت الحنطة كل وزنتين بريال والشعير كل اربعة بريال..."[٣٨].
١٧٩٤	تظافر البرد مع الجراد، عندما اتلف البرد زروع (٣٦) قرية، أما الجراد فأكل ثلث

السنة	سبب الغلاء
	مزروعات الموصل وأتلف زرع خمس قرى[٣٩].
١٧٩٥	أكل الجراد "غالب الحنطة والشعير، ثم أكل القطن المزروع فلما نبت أكله الجراد مرة ثانية فزرعوه ثالث..."[٤٠].
١٧٩٦	"دمر البرد غلة ٧٠ قرية"[٤١].
١٧٩٨	انقطاع الطرق المؤدية إلى المدن الكردية وتعذر وصول البضائع[٤٢].
١٨٠١	دمر البرد غلة ٥ قرى[٤٣].
١٨٢٤	"دهم البلاد الجراد ثم انعدم حاصل الحنطة، وقل انتاج حقول الخضر الممتدة على شاطئ دجلة، وفيما حول القرى..."[٤٤].
١٨٢٦	"انعدم المحصول بسبب الجفاف واشتدت الضائقة الاقتصادية"[٤٥]. "ومات خلق كثير منهم وبقيت جثثهم في الشوارع والأزقة..."[٤٦].

وخلال سنوات الغلاء التي عصفت بالموصل، كان لعدد من ولاتها بعض المحاولات للتخفيف من آثارها السلبية على السكان، ففي غلاء سنة ١٧٤٢ أمر والي الموصل حسين باشا الجليلي (١٧٣٠-١٧٥٠)[٤٧] بإنشاء عدد من الافران لإطعام الفقراء والمحتاجين[٤٨]. واثناء غلاء سنة ١٧٥٧ أمر والي الموصل محمد أمين الجليلي (١٧٥٢-١٧٦٨) [٤٩] بأن يتم طبخ شوربة كل يوم في أحد الجوامع التي قام ببنائها على أن توزع على الفقراء وعن تلك الجهود يتحدث أحد مؤرخي الموصل بقوله "بذل وسعه ببذل الطعام وتربية الأرامل والايتام وكفن من الأموات عدد كثير..."[٥٠]. أما والي الموصل محمد باشا الجليلي (١٧٨٩-١٨٠٦) فكانت له اجراءاته في هذا المجال عندما اصدر أوامره إلى محتكري الحبوب بمنع خزنها وعرضها للبيع، كما بنى "خمسة عشر فرناً، فكثر الخبز في الموصل وبيعت القرصة من الخبز بمصرية..."[٥١]. وكان لوالي الموصل يحيى باشا الجليلي (١٨٢٢-١٨٧٢) اجراءاته للتخفيف عن كاهل الفقراء من خلال استيراده للحبوب فضلاً عن افتتاحه لعدد من المخابز[٥٢].

أما بالنسبة للمواطن الموصلي فلجأ هو الآخر إلى خزن كميات كبيرة من الحبوب تحسباً لما قد يواجهه في السنوات اللاحقة[٥٣].

وفي الحقيقة لم تكن هذه الاجراءات سوى حلول مؤقتة، صحيح انها ساهمت في الحد من الأزمات لفترة زمنية محدودة إلا أنه قد يحدث أن تخرج الامور عن السيطرة وتصبح المدينة على حافة أزمة حقيقية كما حدث في غلاء سنة ١٨٧٨.

ثانياً: غلاء سنة ١٨٧٨ دراسة في الأسباب:

مع بداية هذه السنة هطلت الأمطار ونبت الزرع مما نبأ بموسم زراعي جيد، لكن قبل موسم الحصاد هبت رياح سموم لافحة احرقت المحاصيل الزراعية في الموصل وبغداد وديار بكر[٥٤]. ومما زاد في سوء أوضاع مدينة الموصل قيام تجار بغداد بشراء محصولي الحنطة والشعير من مزارعي المدينة مما كانت سبباً في فراغ أسواق المدينة وقراها من المنتجات الزراعية[٥٥]. وكإجراء احترازي ولتجنب بغداد خطر الغلاء بادر والي بغداد عبد الرحمن باشا (١٨٧٩-١٨٨٠) إلى اصدار أوامره بمنع تصدير المواد الغذائية من ولاية بغداد إلى المدن المجاورة ومنها الموصل، وفعل الشيء ذاته والي ديار بكر عزت باشا[٥٦]. حيث أظهر أهالي الموصل عدم الرضا إزاء هكذا اجراء عندها خاطبوا الباب العالي ولأكثر من مرة مطالبين بالضغط على واليا بغداد وديار بكر للسماح لهم باستيراد الغلال والمواد الغذائية، ورغم تظاهر والي ديار بكر بالموافقة على منح الرخص لنقل السلع والمواد الغذائية إلى الموصل، إلا أن الأخير سرعان ما أصدر أوامره بمصادرة ما سبق أن أشتراه تجار الموصل من مواد وبضائع[٥٧]. ثم هاجمت المدينة موجة برد شديدة جمد على اثرها نهر دجلة[٥٨] حتى عجزت الأكلاك على السير فيه، لذلك لجأ الناس إلى استخدام الحيوانات في عملية نقل الاشخاص والبضائع إلا أن الاخيرة أصابها الأعياء الشديد بفعل المرض وقلة العلف[٥٩].

ثالثاً: غلاء سنة ١٨٧٨ وانعكاساته على الاوضاع الاقتصادية للموصل:

أمام هذ الأسباب مجتمعة عاشت الموصل أوضاعاً اقتصادية صعبة يمكن ايجازها بشحة المواد الغذائية وارتفاع اسعارها بشكل لم تعهده الموصل من قبل[٦٠]. وقد عثر الدكتور عماد عبد السلام رؤوف على رسالة يعود تاريخها إلى سنة ١٨٧٨ وبقلم أحد أدباء الموصل ويدعى (محي الدين) ويكنى بالموصلي حيث خصصها للحديث عن ما أصاب الموصل من ضيق وارتفاع في اسعار المواد الغذائية من خلال تقديمه لأسعار (٧٧) مادة غذائية عرض أسعارها في سنة ١٨٧٨ وما قبلها. وقد اختارت الباحثة بعض من هذه المواد التي ورد ذكرها في هذه الرسالة لإعطاء القارئ فكرة عن اسعار هذه المواد في الظروف الاعتيادية وكيف ارتفعت اسعارها خلال هذه السنة.

جدول رقم (٢)

أسعار عدد من المواد الغذائية في سنة ١٨٧٨ وما قبلها[٦١]

ت	المادة	الوزن	اسعارها قبل سنة ١٨٧٨ بـ (القرش)	اسعارها سنة ١٨٧٨ بـ(القرش)
١	شعير	الوزنة	١	٩٩
٢	حنطة	الوزنة	٤	١٢٠[٦٢]
٣	شلب	المن	٤	٩٠
٤	خبز حنطة	الحقة[٦٣]	–	٣٠
٥	خبز شعير	الحقة	–	١٥
٦	ملح	المن	٢	٥٢
٧	دهن غنم	المن	٤٠	٢٢٠
٨	بصل	الوزنة	٢	٢٥
٩	لحم غنم	اوقية[٦٤]	١	١٢
١٠	سمك	اوقية	٢	٦

والمطلع على الجدول اعلاه يلاحظ ارتفاع أقيام المواد الغذائية بشكل لم يسبق له مثيل، كما لا يخفى الدور الذي اضطلع به التجار والمحتكرون الذين استغلوا الظروف التي كانت تمر بها الموصل فآثروا ما في وسعهم على حساب الفقراء والمحتاجين مستخدمين وعلى حسب قول أحد المصادر "وسائل جهنمية لرفع الأسعار، فكانوا يزعمون نفاذ الحنطة ولكنهم في الوقت نفسه يبيعون حبوبهم –التي احتكروها– بسعر يبلغ عشرين مرة أو خمسة وعشرين مرة من سعر التكليف..."[٦٥].

مع هذا الوضع الاقتصادي المتردي الذي كانت تعيشه الموصل جاء قرار الدولة العثمانية بتخفيض قيمة العملة، حيث تدنت قيمة المجيدي[٦٦] إلى ثمانية قروش وغدا البشليك[٦٧] تساوي قرشين[٦٨] كما ألحقت السلطات العثمانية بهذا القرار قراراً لا يقل اجحافاً عن القرار الأول عندما خولت السلطات البلدية صلاحية مداهمة المساكن ومصادرة ما فيها من طعام وتوزيعه على الناس، ورغم أن تطبيق هذا القرار قد جرى بـ "لباقة وخفة"[٦٩] إلا أن سلبيات عدة رافقت التطبيق منها "افتقار الموظفين الذين كلفوا بتنفيذ هذه المهمة إلى النزاهة متأثرين بالاعتبارات الشخصية أحياناً، والرشوة أحياناً أخرى وكثيراً ما كانوا يعمدون إلى ابلاغ الاغنياء بموعد قدوم السلطات البلدية لتفتيشهم مما

يعطيهم الفرصة لتهريب ما لديهم من مواد غذائية فائضة أما الفقراء فقد كانوا يتعرضون للتفتيش حتى تفرغ بيوتهم من لقمة عيشهم..."[٧٠]. فضلاً عن ذلك استغل عدد من المسؤولين العاملين في البلدية هذه الأزمة لتحقيق الاثراء. وكمثال على ذلك رئيس بلدية الموصل يونس بك آل جليلي (١٨٧٨-١٨٨٢)[٧١] الذي استطاع أن يضاعف ثروته أربعة أضعاف[٧٢].

وبمرور الأيام أخذ الخطر يتفاقم إلى الحد الذي فقد سكان المدينة وسائل البقاء تماماً[٧٣]. وقد قدمت احدى الصحف وصفاً دقيقاً للأوضاع المأساوية التي يعيشها سكان الموصل الذين "خارت قواهم بسبب الجوع والمرض وتحولوا إلى هياكل ضامرة يهيمون على وجوههم في الطرقات من دون هدف يئنون ويتضورون جوعاً ويطلبون على الدوام العون والمساعدة..."[٧٤]. فيما فضل الكثيرين من سكان الأرياف وعلى حسب قول نيقولا سيوفي Nicolas Siouffi[٧٥] نائب القنصل الفرنسي في الموصل "ترك قراهم والتوجه شطر مدينة (الموصل) بحثاً على الرغيف بعد ان طوع الجوع وضاقت ديارها، وقد استحال المئات من سكان هذه المناطق الذين ينتمون إلى الطبقة الكادحة من قلة العمل إلى فقراء متسولين..."[٧٦].

كان من نتيجة استمرار هذه الأزمة وفاة الكثير من أهالي الموصل نتيجة الجوع ولجوئهم إلى أكل الميتة فضلاً عن تكدس الجثث في شوارع المدينة[٧٧]. وفي هذا المجال ذكر نائب القنصل الفرنسي في الموصل واستناداً إلى شهادة أحد الضباط ان "خمسة أشخاص كانوا يموتون من الجوع في كل يوم في مدينة الموصل"[٧٨]. فيما أقدم الكثير من الأهالي على بيع أولادهم وبناتهم في محاولة لتأمين لقمة العيش[٧٩].

انتقل تأثير موجة الغلاء إلى مدن السليمانية وكركوك والتي كانت تعرف لدى أهالي كركوك بـ (بيوك بهالق) أي (الغلاء الكبير) والتي وصلت ضحاياه إلى ثلاثين شخصاً في اليوم. كما نشطت عصابات اللصوص وقطاع الطرق[٨٠] وفضّل الكثير من السكان ترك مدنهم والتوجه نحو بغداد التي كانت هي الأخرى تعاني من "غلاء شديد"[٨١] حيث عرفت لدى أهالي بغداد بـ "سنة البرسيمة" لأن المهاجرين كانوا ينطقون كلمة البرسمية أي جوعان باللغة الكردية.

رابعاً: الاجراءات الرسمية وغير الرسمية لمواجهة غلاء سنة ١٨٧٨:

أمام هول هذه الكارثة واستمرارها لفترة طويلة حاول عدد من المسؤولين المحليين والأشخاص ورجال الدين تقديم المساعدة لفقراء المدينة وبغض النظر عن الدين والمعتقد. ففي كانون الثاني سنة ١٨٨٠ ناشد القنصل

البريطاني العام في بغداد العقيد مايلز S.M.Miles[٨٢] (١٨٧٩-١٨٨٠)[٨٣] وفي احدى رسائله إلى الحكومة البريطانية تقديم المساعدة العاجلة لأهالي المدينة والتي جاء فيها "الغوث الغوث... وعلى استعجال، الوفيات كثيرة والأطفال يباعون ويشترون أو يُتركون رحمة للأقدار، الجياع ينحدرون كالسيل المنهمر من القرى المجاورة للمدينة...". وبالفعل كانت الاستجابة سريعة من الحكومة البريطانية عندما صدرت الأوامر إلى القنصلية البريطانية في الموصل بنصب القدور الضخمة لطهي الطعام وتوزيعه على أهالي المدينة[٨٤].

أما ارسالية الآباء الدومينيكان في الموصل[٨٥] فكانت لها اسهاماتها في هذا المجال عندما قامت بتوزيع الغذاء على الفقراء والمحتاجين في مبنى كنيسة الساعة[٨٦].

كما تطرقت احدى المصادر إلى الجهود التي اضطلعت بها جمعية "اخوان المحبة الدومينيكان لتقدمة العذراء القديسة"[٨٧] في التخفيف عن فقراء المدينة عندما "امتلأ دير الراهبات بالجياع فكنَّ يطعمن ما يقارب الـ (٣٠٠) شخص يومياً ووصل الحال بهنّ إلى الانتقال من بيوت الاغنياء يستعطين الخبز لفقرائهن"[٨٨]. وفي السياق ذاته برزت جهود بطريرك طائفة السريان الكاثوليك في الموصل بهنام بني (١٨٩١-١٨٩٧) في توزيعه للصدقات على الفقراء حتى لقب بـ (أبو الذهب) لكثرة ما أنفقه من الليرات الذهبية لشراء الغذاء لفقراء المدينة[٨٩]. كما لجأ عدد من الموصليين إلى طبخ قدور الحساء ووضعها عند باب الجسر القديم حيث يجري توزيعها على الجياع والفقراء[٩٠].

بدأت انفراج الازمة عندما اجرى والي الموصل عبد النافع باشا (١٨٧٨-١٨٧٩) اتصالاته مع عدد من الولاة لتأمين إرسال المساعدات الغذائية العاجلة للموصل، كما استحصلت السلطات المحلية في الولاية الموافقات الرسمية لإعفاء محصولي الحنطة والشعير من الرسوم والضرائب لمدة ستة أشهر فضلاً عن جميع المنتجات الزراعية القادمة من البصرة وإيران والهند، في شباط سنة ١٨٨٠ سقطت أمطار غزيرة على الموصل كما أخذت الأكلاك بالوصول إلى الموصل محملة بالحنطة والرز والتمر، كما وصلت إلى الموصل قوافل الجمال القادمة من بغداد[٩١] حيث تم انشاء عدد من الأفران لخبز الخبز وتوزيعه على الأهالي[٩٢].

أما بالنسبة لأهالي الموصل فلجأ الكثيرين وبعد انتهاء هذه الأزمة إلى تخزين المواد الغذائية ومنها البقوليات والحبوب واللحوم[٩٣] وبشكل أكثر من السابق. وقد قدم المؤرخ الموصلي ياسين الصائغ وصفاً لأهالي الموصل عندما قال "إن أهل الموصل غالباً ما يشهدون وهم مطرقين يهتمون للمستقبل، حتى ان الرجل ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة وغيرها من ضروريات المعيشة ويباكر الاسواق لشراء قوته اليومي مخافة أن يُرزءَ "شيئاً من مدخره"[٩٤].

الخاتمة:

- شغلت موجات الغلاء التي تعرضت لها الموصل جانباً من اهتمام عدد من المؤرخين العراقيين ومنهم المؤرخ الموصلي ياسين بن خير الله العمري الذي أحصى –ومن خلال عدد من مؤلفاته– موجات الغلاء التي تعرضت لها الموصل خلال المدة بين (١٥٤٦–١٨٠٤)، حيث تم توظيف هذه المؤلفات في المحور الأول من البحث.
- كانت الموصل ومن خلال تاريخها الحديث واحدة من أكثر المدن العراقية تعرضاً لموجات الغلاء، والذي يعد مسألة طبيعية أمام اعتماد نشاطاتها الزراعية على الأمطار، مما يجعل هذه النشاطات عرضة للتذبذب في سنوات الجدب واسباب اخرى تؤدي في النهاية إلى نتيجة حتمية ألا وهي ارتفاع أسعار المواد الغذائية ومع تزامن ذلك مع قلة مدخولات المواطن الموصلي وضعف قدرته الشرائية والتي تؤدي في النهاية إلى تعرض المدينة إلى موجات غلاء، ويأتي غلاء سنة ١٨٧٨ واحداً من أفظع موجات الغلاء التي تعرضت لها مدينة الموصل لكثرة ضحاياه من جهة، فضلاً عن استمراره لمدة قاربت السنتين.
- عبرت ظروف هذه الأزمة عن التلاحم الاجتماعي إذ كان لبعض من الطوائف اسهاماتها في تقديم المساعدات الغذائية للفقراء والمحتاجين بغض النظر عن الطائفة أو المعتقد.

---

(١) الموصل في القرن الثامن عشر حسب مذكرات دومينيكيو لانزا، عربها عن النص الإيطالي: القس رؤفائيل بيداويد، ط٢، المطبعة الشرقية، (الموصل، ١٩٥٣)، ص١٥.

(٢) عماد عبد السلام رؤوف، الموصل في العهد العثماني فترة الحكم المحلي ١١٣٩–١٢٤٩هـ/١٧٢٦–١٨٣٤م، منشورات مكتبة ميسر النجماوي، (الموصل، ١٩٧٥)، ص ٢٧٩.

(٣) "الموصل حسب رحلة بادجر"، تعريب الأب لويس ساكوا، مجلة بين النهرين، العددين ٩–١٠، السنة الثالثة، (الموصل، ١٩٧٥)، ص ٦٥.

(٤) نقلاً عن: رؤوف، المصدر السابق، ص ٢٧٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٧٩.

(٦) خليل علي مراد، "اقتصاديات الموصل في العصر العثماني من خلال كتابات مؤرخها ياسين بن خير الله العمري"، مجلة أوراق موصلية، العدد ١، ٢٠٠٢، ص ٧.

(٧) فرضت هذه العشيرة ضريبة الخاوة على التجار والمسافرين على الطريق الذي يصل بين الموصل وبلاد الشام وبين الموصل وبغداد، كما انها كانت تستوفي رسوماً على الخيول والاغنام التي تعود إلى عدد من العشائر التي كانت تجوب منطقة الجزيرة كعشائر الجبور وطي والبو حمد والحديديين والجحيش. جاسم محمد حسن العدول، "الموصل في العهد الحميدي (١٢٩٣-١٣٢٧هـ-١٨٧٦-١٩٠٩م)"، موسوعة الموصل الحضارية، م٤، دار الكتب للطباعة والنشر، (جامعة الموصل، ١٩٩٢)، ص ٩٩.

(٨) مراد، المصدر السابق، ص ٧-٨.

(٩) الرطل: وحدة لقياس الوزن، ويعادل (٢٤) كلغم. شاكر صابر الضابط، "الكيل والميزان في المدن العراقية خلال القرن التاسع عشر"، الميزان" "الكيل"، مجلة التراث الشعبي، مج (٤-٥)، كانون الأول ١٩٦٣-كانون الثاني ١٩٦٤، ص ٦٩.

(١٠) الدرهم: وهو المعروف بالأقجة، والاقجة: عملة فضية تعادل ١,١٥٤ غراماً، تم ضربها خلال العقد الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي واستمر تداولها حتى توقف سكها سنة ١٨٢٧. رؤوف، المصدر السابق، ص ٥٥٤- ٥٥٥.

(١١) غسان وليد الجوادي، "حركة الأسعار في الموصل خلال العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٨"، مجلة دراسات موصلية، العدد ٤٦، ربيع الثاني ١٤٣٩هـ/كانون الأول ٢٠١٧م، ص ٨٨.

(١٢) عباس العزاوي المحامي، موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين، العهد العثماني الأول ٩٤١هـ-١٥٣٤م/١٠٤٩هـ-١٦٣٩م، م٤، الدار العربية للموسوعات، (بيروت، د.ت)، ص ١٩٢.

(١٣) ياسين بن خير الله العمري، زبدة الآثار الجلية في الحوادث الارضية، حققه وعلق عليه: عماد عبد السلام رؤوف، (النجف، ١٩٧٤)، ص ٥٩.

(١٤) ياسين بن خير الله الخطيب العمري، مُنية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء، تحقيق: سعيد الديوه جي، ط٢، (الموصل، ٢٠٠٩)، ص ١٥٤.

(١٥) لم يحدد المصدر سبب هذا الغلاء. علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨-١٧٥٠ ميلادية، ١٠٤٨-١١٦٤ هجرية دراسة في أحواله السياسية، ط١، دار ابن الاثير للطباعة والنشر، (الموصل، ١٩٨٥)، ص ١٥٦.

(١٦) المحامي، المصدر السابق، العهد العثماني الثاني ١٠٤٨هـ-١٦٣٨م/١١٦٣هـ-١٧٥٠م، م٥، (بيروت، د.ت)، ص ١٢٤.

(١٧) الجوادي، المصدر السابق، ص ٨٨.

(١٨) نقلاً عن: العمري، منية الأدباء، ص ١٥٦.

(١٩) مراد، المصدر السابق، ص ١٤.

(٢٠) العمري، منية الأدباء، ص ١٥٦-١٥٧.

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٥٧.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٥٧.

(٢٣) الوزنة: وتساوي ٢٦٠ كغم، وهي وحدة لقياس الغلال. شارل عيساوي، التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب ١٨٠٠-١٩١٤، ترجمة: رؤوف عباس حامد، (بيروت، ١٩٩٠)، ص ٦٨٩.

(٢٤) نقلاً عن: العمري، منية الأدباء، ص ١٥٧.

(٢٥) العزاوي، المصدر السابق، م٥، ص ٢٥١. ستيفن همسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، نقله إلى العربية: جعفر الخياط، ط٦، مكتبة اليقظة العربية، (بغداد، ١٩٨٥)، ص ١٩٢.

(٢٦) رؤوف، المصدر السابق، ص ٣٨٢-٣٨٣.

(٢٧) نقلاً عن: العمري، المصدر السابق، ص ١٦٢-١٦٣.

(٢٨) القس سليمان الصائغ الموصلي، تاريخ الموصل، م١، حقق نصه وقدم له وعلق عليه: عبد الخالق بن عبد اللطيف بن حسن الموصلي، دار الكتب العلمية، (بيروت، د.ت)، ص ٣٥٤.

(٢٩) لانزا، المصدر السابق، ص ٤٣.

(٣٠) الجوادي، المصدر السابق، ص ٨٨.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٨٨.

(٣٢) رؤوف، رسالة في غلاء، ص ٢.

(٣٣) نقلاً عن: ياسين أفندي العمري بن خير الله الخطيب العمري الموصلي، غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر، عني بطبعه ونشره: محمد صديق الجليلي، مطبعة أم الربيعين، (الموصل، ١٩٤٠)، ص ١٣-١٤.

(٣٤) القرش: عملة فضية جرى تداولها في نهاية القرن السابع عشر، أما عن قيمته فيساوي (١٢٠) اقجة. غانم محمد علي، النظام المالي العثماني في العراق ١٢٥٥-١٣٣٣هـ-١٨٣٩-١٩١٤م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، (جامعة الموصل، ١٩٨٩)، ص ١٦٥-١٦٦.

(٣٥) الريال: وهو على نوعين، النوع الأول ويعادل (١٧٥) اقجة، أما النوع الثاني فيعادل (١٥٠) اقجة. خليل علي مراد، تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني ١٠٤٨-١١٦٤هـ/١٦٣٨-١٧٥٠م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، (جامعة بغداد، ١٩٧٥)، ص ٤٤٧.

(٣٦) نقلاً عن: رؤوف، الموصل في العهد العثماني، ص ٢٨٣.

(٣٧) نقلاً عن: نظمي زادة مرتضى افندي، كلشن خلفا، نقله إلى العربية: موسى كاظم نورس، (بغداد، ١٩٧٢)، ص ٢٩٥.

(٣٨) نقلاً عن: الموصلي، غرائب الأثر، ص ٢٦.

(٣٩) رؤوف، الموصل في العهد العثماني، ص ٢٨٣.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٢٨٣.

(٤١) نقلاً عن: بيرسي كيمب، الموصل والمؤرخون الموصليون في العهد الجليلي ١٧٢٦-١٨٣٤، ترجمة: محب احمد الجليلي وغانم العكيلي، مراجعة الترجمة: صلاح سليم علي، (جامعة الموصل، مركز دراسات الموصل، ٢٠٠٧)، ص ٤١.

(٤٢) العمري، غرائب الأثر، ص ٤٨.

(٤٣) كيمب، المصدر السابق، ص ٤١.

(٤٤) نقلاً عن: رؤوف، الموصل في العهد العثماني، ص ٢٨٣.

(٤٥) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

(٤٦) نقلاً عن: السير وليس بدج، رحلات إلى العراق، ج١، ترجمة وتعليق: فؤاد جميل، ط١، (بغداد، ١٩٦٩)، ص ٢٨٦.

(٤٧) تولى حسين باشا الجليلي ولاية الموصل خلال هذه المدة سبع مرات وعلى التوالي (١٧٣٠- ١٧٣١)، ١٧٣٣، (١٧٣٨-١٨٤٠)، (١٧٤١- ١٧٤٦)، (١٨٤٧- ١٧٤٨)، ١٧٥٠.

(٤٨) المحامي، المصدر السابق، م٥، ص ٣٠٨.

(٤٩) عين محمد أمين باشا الجليلي والياً على الموصل ولفترات متقطعة خلال هذه المدة كان آخرها المدة بين ١٧٦١-١٧٦٨.

(٥٠) رؤوف، الموصل في العهد العثماني، ص ٢٨٣.

(٥١) المصدر نفسه، ص ٢٨٣. والمصرية عملة فضية تعادل (٣) أقجات. مراد، تاريخ العراق، ص ٤٤٢.

(٥٢) كيمب، المصدر السابق، ص ١١٧.

(٥٣) ابراهيم خليل احمد، "الأمراض والأوبئة وتأثيرها على المجتمع الموصلي خلال العصور الحديثة"، مجلة التربية والعلم (الموصل)، العدد ٩، ١٩٩٠، ص ١١٢.

(٥٤) الموصلي، تاريخ الموصل، ص ٢٥٤؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٣ من سنة ١٨٧٦ إلى سنة ١٩١٤، ط٢، دار الراشد، (بيروت، ٢٠٠٥)، ص ٤٢؛ حسن، المصدر السابق، ص ٢٩١.

(٥٥) رؤوف، رسالة في غلاء، ص ١١.

(٥٦) الموصلي، تاريخ الموصل، ص ٥٤؛ الجوادي، المصدر السابق، ص ٩٥.

(٥٧) رؤوف، رسالة في غلاء، ص ١١؛ الجوادي، المصدر السابق، ص ٩٥.

(٥٨) الوردي، المصدر السابق، ص ٤٢؛ جاسم محمد حسن، العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦- ١٩٠٩م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، (جامعة بغداد، ١٩٧٥)، ص ٢٩١.

(٥٩) رؤوف، رسالة في غلاء، ص ١١.

(60) Tristram J, Ellis, on a raft and through the desert, (London, n.d), Vol I, p. 97.

(٦١) رؤوف، غلاء الاسعار، ص ١١.

(٦٢) ان هذا السعر يخالف ما أجمعت عليه المصادر من أن سعر وزنة الحنطة سنة ١٨٧٨ هو (١٠٠) قرش أي ما يعادل ليرة ذهبية، حتى ان هذه السنة كانت معروفة لدى اهالي الموصل بسنة الليرة. الموصلي، تاريخ الموصل، ص ٣٥٤؛ غسان وليد مصطفى الجوادي، احوال الموصل الاقتصادية ١٨٣٤–١٩١٨، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية التربية، (جامعة الموصل، ٢٠٠٦)، ص ٣٢.

(٦٣) الحقة: تساوي (٤٨٠,٤) كلغم. رؤوف، رسالة في الغلاء، ص ٥.

(٦٤) الاوقية: تساوي (٧٣٦) غراماً. رؤوف، رسالة في الغلاء، ص ٥.

(٦٥) بيير دي فوصيل، الحياة في العراق منذُ قرن ١٨١٤– ١٩١٤، ترجمة: أكرم فاضل، (بغداد، ١٩٦٨)، ص ٨٣.

(٦٦) المجيدي: عملة فضية عرفت بهذا الاسم نسبة إلى السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩–١٨٦١)، وتساوي عشرين قرشاً. مراد، النظام المالي، ص ٢٥١.

(٦٧) البشليك: عملة من فئة الخمسة قروش تم ضربها سنة ١٨٤٤. عباس العزاوي، تاريخ النقود العراقية لما بعد الدولة العثمانية، (بغداد، ١٩٥٨)، ص ١٦٣.

(٦٨) الوردي، المصدر السابق، ص ٤٣.

(٦٩) نقلاً عن : بدج، المصدر السابق، ص ٢٨٧.

(٧٠) نقلاً عن: فوصيل، المصدر السابق، ص ٨٤.

(٧١) احمد علي الصوفي، تاريخ بلدية مدينة الموصل، ج١، مطبعة الجمهور، (الموصل، ١٩٧٠)، ص ٢٦–٢٧.

(٧٢) بدج، المصدر السابق، ص ٢٨٧.

(٧٣) جليلي جليل، م. أ. حسرتيان شاكر ومحويان، م. س. لازاريف، أولغا جيغالينا، الحركة الكردية في العصر الحديث، ترجمة: عبد حاجي، ط٢، دار اراس للطباعة والنشر، (اربيل، ٢٠١٣)، ص ٤٦.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٤٦.

(٧٥) نيقولا سيوفي: ولد في دمشق سنة ١٨٢٩، من أسرة مسيحية، عمل مترجماً في عدد من القنصليات الفرنسية، كما عمل مترجماً للأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٨–١٨٨٣) الذين كان منفياً في دمشق، شغل منصب نائب القنصل الفرنسي في الموصل سنة ١٨٧٨. محمد داخل السعدي، المصالح الاجنبية في الموصل (١٨٣٤–١٩١٨)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، (جامعة الموصل، ١٩٩٩)، ص ٢٥.

(٧٦) نقلاً عن: فوصيل، المصدر السابق، ص ٨٣؛ Ellis, op. cit., p. 100.

(٧٧) الموصلي، تاريخ الموصل، ص ٣٥٤.

(٧٨) نقلاً عن: فوصيل، المصدر السابق، ص ٨٣.

(٧٩) العزاوي، المصدر السابق، م٨، ص ٦٢.

(80) Ellis, op. cit., p. 100.

(٨١) الوردي، المصدر السابق، ص ٤٥.

(٨٢) صالح خضر محمد، الدبلوماسيون البريطانيون في العراق ١٨٣١-١٩١٤ دراسة تاريخية، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ٢٠٠٥)، ص ٢٦٨.

(٨٣) ذكرت احدى المصادر أن مخزون القنصلية من المواد الغذائية وتحديداً الحنطة قد نفذ. Ellis, op.cit, p.97.

(٨٤) نقلاًعن: بدج، المصدر السابق، ص ٢٨٧.

(٨٥) ارسالية الآباء الدومينيكان: وفدت إلى الموصل سنة ١٦٣٦، كانت في بداية تأسيسها بيد الإيطاليين لتنتقل فيما بعد إلى الفرنسيين، اتبعت أساليب شتى للتقرب إلى الناس منها الخدمات الطبية حيث برز منهم الآب فرنسيس توريانى، والأب كوديليو تشين والأب هياسنت بيسون، فضلاً عن افتتاحهم لعدد من المدارس. للمزيد حول تلك الاسهامات يراجع: حيدر جاسم عبد عبيس رويعي، الآباء الدومينيكان في الموصل دراسة في نشاطاتهم الطبية والثقافية والاجتماعية ١٧٥٠-١٩٧٤، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية التربية، (جامعة الموصل، ٢٠٠١).

(٨٦) كنيسة الساعة: أو كنيسة الآباء الدومينيكان اللاتين وتعرف لدى اهالي الموصل من المسيحيين بكنيسة (أم الاعجوبة)، تم انشائها سنة ١٨٧٣، تتميز بساعتها التي ارسلتها الحكومة الفرنسية اقراراً منها بجهود الآباء الدومينيكان في المجال التبشيري. سمير بشير حديد، "منطقة الساعة نموذج للتآخي بين شرائح المجتمع الموصلي"، www.baytalmosul.com؛ رويعي، المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٨٧) جمعية اخوان المحبة الدومينكان لتقدمة العذراء القديسة: تأسست في فرنسا سنة ١٦٩٦ وبجهود من ماري بوسبان Mary Poussepin، من اهدافها رعاية المعوقين والمرضى والأيتام. عبد العزيز سليمان نوار، عوامل فعالة في الاتجاهات الفكرية والسياسية في العراق الحديث وأثره في تكوين الزعامة ١٨٧٢-١٩٠٩، (القاهرة، ١٩٧٤)، ص ١٢٦-١٢٧.

(٨٨) بهنام سليم حبابة، الآباء الدومنيكان في الموصل أخبارهم وخدماتهم ١٧٥٠-٢٠٠٥، مطبعة حاج هاشم، (اربيل، ٢٠٠٦)، ص٢٣.

(٨٩) سهيل قاشا، تاريخ ابرشية الموصل للسريان الكاثوليك، (بغداد، ١٩٨٥)، ص ٦٩.

(٩٠) فوصيل، المصدر السابق، ص ٨٣.

(٩١) خليل علي مراد وعلي شاكر علي، الموصل وكركوك في الوثائق العثمانية رقم الوثيقة ٢١ تاريخ الوثيقة ١٢/ أيلول ١٢٩٥ رومي، مخطوط محفوظ في مركز دراسات الموصل، (جامعة الموصل، ١٩٩٥)، ص ١١٧

(٩٢) كانت هذه القوافل تتعرض إلى هجمات عشيرة شمر التي كانت تستولي على قسم منها، وهذا ما حصل بالفعل لإحدى هذه القوافل المؤلفة من (٤٠) حملاً والمحملة بالتمر والرز إذ لم يصل منها إلى الموصل سوى ثلثي الحمولة. Ellis, op. cit., p 100.

(٩٣) الموصلي، تاريخ الموصل، ص ٣٣٤.

(٩٤) نقلاً عن: بدج، المصدر السابق، ص ٢٨٧. كان لأهالي الموصل طريقتهم الخاصة في حفظ اللحوم. وتقوم هذه الطريقة على تقطيع اللحم إلى قطع صغيرة ووضعها في أواني فخارية أعدت لهذا الغرض، حيث يضاف إليها الماء الذي يحوي على كميات كبيرة من الملح، وعند الحاجة يتم اخراج اللحم ويغسل جيداً ليتم اعداده للطبخ.